مجلة
اللغة العربية وآدابها المجلد09/ العدد 01/ أوت 2021. ص 209- 222

تجربة التخييل الذاتي في الرواية الجزائرية

"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" للطاهر وطار

The experience of self-fiction in the Algerian novel

"Al Wali Attaher Yaoud Ila Makamihi Ezzaki " by Taher Watter

قيرش حبيبة *

تاريخ الإرسال: 2020/11/24	تاريخ القبول:28/06/2021	تاريخ النشر:20/08/2021

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة رصد معالم وحدود نوع جديد من الكتابة الروائية في الأدب الجزائري، وهو التخييل الذاتي Autofiction الذي أثار منذ ظهور النصوص الأولى التي انتسبت إليه ،أسئلة كثيرة وجدلا واسعا بسبب وقوفه بين جنسين أدبيين معروفين : السيرة الذاتية والرواية وارتأيت الاشتغال في هذه الدراسة على التخييل الذاتي في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" للطاهر وطار وذلك لأن هذا النموذج يحمل في طياته ملامح التخييل الذاتي

-فكيف تجلى الواقع والتخييل الذاتي في الرواية الجزائرية باعتباره نوعا جديدا في الكتابة الروائية؟

الكلمات المفتاحية: التخييل الذاتي، السيرة، الرواية الجزائرية.

abstract:

The aim of this study is to explore the features and the limits of a new type of fiction in Algerian literature, Autofiction; which is, since the advent of the first texts to which he belonged, has raised many questions and controversies due to its standing between two known genres: biography and novel. In this study I considered working on autofiction in the novel "Al wali Attaher Yaoud Ila Makamihi Ezzaki" by Taher Wattar, because this masterpiece carries the features of autofiction.

* جامعة البليدة 02 الجزائر Guirecheh@gmail.com

So, how has reality and autofiction manifested itself in the Algerian novel as a new type in fiction?

Keywords:
Autofiction, Biography, Algerian novel.

مقدمة:

إن التخييل الذاتي Autofiction قد أثار منذ ظهور النصوص الأولى التي انتسبت إليه أسئلة كثيرة وجدلا واسعا بسبب وقوفه بين جنسين أدبيين معروفين : السيرة الذاتية والرواية فيأخذ من الأولى مشروعية التاريخ والذات ومن الثاني مشروعية التخييل بكل ما يتيحه من حرية مطلقة في بناء الأحداث والشخصيات والفضاء المكاني خصوصا، ،فتتأسس الذات مبدئيا لتنتقل إلى مركزية الحكي، وتستولي على جميع خيوطه، تتلاعب بالأحداث عندما تقوم بعملية الاسترجاع ،و تقوم بسردها وفق منظورها الخاص ،تحلل، تعلق، تفكك، ثم تستجمع أشلاء النص من جديد، ليس بترتيب كرونولوجي بل بترتيب عبثي يدخل القارئ في متاهة الحكي ويوقعه في شرك السرد ليجد نفسه أمام ذات حقيقية وأحداث متخيلة بعيدة كل البعد عن المرجعية التاريخية للكاتب لكنها قد تحمل في طياتها بعضا من شذراته، وارتأيت الاشتغال في هذه الدراسة على التخييل الذاتي في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" للطاهر وطار وذلك لأن هذا النموذج يحمل في طياته ملامح التخييل الذاتي إذ نجد داخل معماريته تطابقا صريحا بين الكاتب والسارد والشخصية الرئيسية وهو معلن منذ البداية مع اختلاف تام بين العوالم الممكنة في الرواية والمرجع التاريخي للمؤَلف، وهذه العوالم المتخيلة التي ابتدعها الكاتب وقام فيها بقفزات زمنية توحي للقارئ بأنه قد عاشها وعايش جل أحداثها في حين هي عوالم من صنع خياله ولا تمد بأي صلة لمرجعيته التاريخية ،والقارئ للرواية يجد نفسه أمام دهاليز الحكي الذي ابتدعه الكاتب بتخييل أحداث ووقائع شديدة الواقعية.

-فكيف تجلى الواقع والتخييل الذاتي في الرواية الجزائرية باعتباره نوعا جديدا في الكتابة الروائية؟.

1. السيرة الذاتية والتخييل الذاتي:

تتمثل الأنا في الفعل الإنساني في كل تشكيلاته، وعبر "مختلف مراحل تطور وعيه لأن الإنسان بطبعه مجبول على حب إظهار ما يعتمل في دواخله، وهو إلى ذلك مشدود حتى في لحظات إعماله الكتمان الذي يمكن بسهولة ويسر قراءته على أنه نوع من البوح العكسي بما تروم النفس إبقاءه طي الكتمان، إلى رغبته في ترجمة أناه."(1)

كما يشير مصطلح "كتابة الأنا" إلى "جنس جامع لضروب من الكتابة السردية تتخذ ذات المؤلف مدارا لها وتقوم على التطابق الصريح بين أعوان السرد الثلاثة: المؤلف والراوي والشخصية، وتعد السيرة الذاتية، واليوميات الخاصة والاعترافات والرسم الذاتي والمذكرات من أشهر كتابات الأنا. فهذه الأشكال من الكتابة وإن اختلفت في ما بينها وتنوع توظيفها تقنيات السرد، فإنها تلتقي في اعتماد حياة المؤلف مصدرا للكتابة ومادة لها وموضوعا. وذلك بقص سيرته أو تسجيل ما يجري له من وقائع يوما بيوم أو عرض ملامحه النفسية والجسدية أو استحضار ذكرياته عن الناس والعصر(...)إن الارتكاز على الذات في هذه الكتابات يستبطن جدلا بين الأنا والآخر والداخل والخارج والذاتي والموضوعي ولا تعني قوة الإحالة المرجعية في هذه الكتابات أنها منعدمة الصلة بالتخييل فكثيرا ما اكتسبت ذات المؤلف أبعادا نفسية ورمزية تنشأ داخل فعل الكتابة، وكثيرا ما اتسمت وقائع حياته بسمات تخييلية لم تكن لها في الواقع المرجعي التاريخي. ذلك أن الكتابة وإن جعلت همها الأول التعريف بالذات وسرد قصة حياتها، هي دائما خلق للذات وانبعاث لها جديد. "(2)

2.1/السيرة الذاتية:

تعد السيرة الذاتية Autobiographie أبرز أشكال كتابة الأنا وأمتنها صلة بفن السرد ولعل أشهر التعريفات المقدمة للسيرة الذاتية وأكثرها تداولا بين الدارسين ذاك الذي قدمه "فيليب لوجون"(Philippe Lejeune ,1975) :"السيرة الذاتية حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص ،وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"(3) وقد استخلص من هذا التعريف أن" السيرة الذاتية تقوم على ركائز أربعة هي:

-شكل الكلام: قصة نثرية

-الموضوع المطروق: الحياة الفردية وتاريخ الشخصية

-منزلة المؤلف: التطابق بين المؤلف والراوي

-موقع الراوي: التطابق بين الراوي والشخصية الرئيسية واعتماد القص الارتدادي.
على أن هذه العناصر ليست خاصة بالسيرة الذاتية، لذلك عمد"لوجون" (نفسه) إلى مقارنة السيرة الذاتية بأجناس أدبية قريبة منها كالمذكرات والسيرة والرواية الشخصية والرواية السير ذاتية(4)

يقول "فيليب لوجون:"ومن البديهي أن مختلف الأصناف متفاوتة من حيث اجباريتها: إذ يمكن أن يتحقق الجزء الأكبر من بعض الشروط دون أن يتم ذلك كليا يجب أن يكون النص حكيا قبل كل شيء غير أننا نعرف المكانة التي يشغلها الخطاب في السرد الأتوبيوغرافي، كما أن المنظور الاستعادي بالأساس لا يقصي مقاطع من الأتوبورتريه، ويومية خاصة بالعمل المنجز أو بالحاضر المزامن لتحريره والبناءات الزمنية الجد معقدة. كما يجب أن يكون الموضوع أساسا هو الحياة الفردية وتكَون الشخصية، غير أنه يمكن أن يشتمل إلى جانب ذلك على التعاقب والتاريخ الاجتماعي أو السياسي فالأمر يتعلق هذا بمسألة تناسبية أو بالأحرى بمسألة تراتبية: إذ تقام بالطبع عدة تبادلات مع باقي أنواع الأدب الشخصي(مذكرات، يومية، مقالة)، وتبقى للمصنف حرية معينة في فحص الحالات الخاصة(5).

ومهما اختلفت التعريفات المقدمة للسيرة الذاتية فإن" قاسما مشتركا بينها يقر بأن الكتابة السير ذاتية تنهض على تسليم ضمني بالتطابق بين الذات التي تروي في الحاضر قصة وجودها الشخصي والذات المتحدث عنها في الماضي. على أن الإقرار بالتطابق يتجاوز التماهي في الشخصية. ذلك أن المشروع السير ذاتي ينبني على مبدأ التواصل بين الذات الكاتبة والذات التي عاشت الحياة فيستطيع المؤلف وهو غالبا شيخ في الحاضر، أن يستعمل ضمير"الأنا" للحديث عن الطفل الذي كان قديما، ويستطيع كذلك أن يتنقل من الماضي إلى الحاضر دون يفرق بين الشخصين فالطفل والكهل ذات واحدة مرجعها إلى شخصية المؤلف التاريخية. ولئن كان من اليسير جدا أن تضمن السيرة الذاتية التطابق في الاسم بين المؤلف خارج النص وذاته الماضية داخل القصة، فإن التطابق في الشخصية أمر عسير المنال."(6)

فمهما عمل كاتب السيرة الذاتية على أن يكون" وفيا لماضيه ومهما كان حرصه كبيرا على الالتزام بالصدق والنزاهة، فإن "الأنا" التي يرسم ملامحها ويروي قصة وجودها لن

تحيل إلى ذات واحدة معروفة تاريخيا، بل ستحيل إلى ذاتين على قدر هام من التباعد والاختلاف. فالتباعد الزمني بين لحظة الكتابة ولحظة الحياة، وهو خصيصة كل مشروع سير ذاتي، ليس مجرد عدد من السنين كبر أو ضؤل، بل هو إلى ذلك تباعد في الأهواء والأفكار والمشاعر والرؤى والأحكام. فيكون من باب المجاز أن نتحدث عن شخص واحد فقط فاعل السيرة الذاتية. مما يؤدي إلى التباعد بين الذات الراوية والذات المروية أن السيرة الذاتية محكومة في سعيها إلى تقديم معرفة بالذات بوساطتين تجعلان نقل صورة الذات عملا غير مباشر بالضرورة هما: الذات والكتابة.فهاتان الأداتان هما سلاح المؤلف لاستعادة الماضي وابتعاثه في عالم حي جديد هو النص. بيد أن الذاكرة والكتابة بقدر ما تبعثان الإحساس بامتلاك الماضي، تؤكدان الابتعاد عنه. فهما متأصلتان في زمن الكتابة، مرتبطتان بذات الكاتب في الحاضر، متأثرتان بها، مؤثرتان فيها."(7)

3.1/التخييل الذاتي:

يعد مصطلح التخييل الذاتي"autofiction " من المصطلحات الجديدة حيث ابتكره الروائي والباحث الفرنسي" سيرج دوبروفسكي" (Serge Dobrovsky) وأثبته على الصفحة الرابعة من غلاف روايته "خيوط"(fils) الصادرة سنة 1977م تعيينا للجنس الفرعي الذي أدرج في روايته تلك من جهة وردا من جهة ثانية على "فيليب لوجون" الذي استبعد في كتابه ميثاق السير الذاتي 1975م أن يكون في تاريخ الرواية نص روائي قائم على ميثاق تخييلي صريح يحمل فيه البطل اسم المؤلف ولقبه. فكان إصدار "دوبروفسكي" رواية خيوط محاولة منه لسد هذا الفراغ الذي لاحظه "لوجون" وإثبات أنه يمكن أن يتطابق البطل والروائي في الاسم ومع ذلك يظل النص تخييليا. ولئن عاد فضل ابتكار المصطلح إلى "دوبروفسكي" فإن فضل تعريف المفهوم وتفصيل القول فيه والتمييز بينه وبين مفهوم الرواية السير ذاتية إنما يعود أساسا إلى الباحث الفرنسي "فانسان كولونا" (Vincent Colonna,1989,2004) فقد صاغ للتخييل المرجعي. فقال:" التخييل الذاتي عمل أدبي يختلق بواسطته مؤلف ما لنفسه شخصية ووجودا ويظل محافظا في الوقت نفسه على هويته الحقيقية(اسمه الواقعي)"(8)

تصنع نصوص التخييل الذاتي تميزها من خلال قصدية تنصلها من النصوص السير ذاتية عن طريق إعلانها عدم الانتماء إلى هذه الأخيرة رغم وجود تطابق مابين المؤلف

والشخصية الرئيسية، حيث تتعمد تلك النصوص كسر ذلك الإعلان من خلال هدمها كل علاقة محتملة الوجود بين محمولات نصوص التخييل الذاتي وكل ما هو مرجعي سير ذاتي، إن التخييل الذاتي" ينزاح عن الواقع ويعيد تشخيصه بطريقة خيالية، ويتمرد على مواصفات الميثاق السير ذاتي"(9) عن طريق تزييف الواقع وإضافة التخييل إلى التجارب الذاتية.

إن كانت الرواية عمل فني يستند إلى الخيال، والسيرة الذاتية تستند إلى الواقع فإن التخييل الذاتي له سمة جنسية أخرى من خلال الخانة الفارغة التي تركها لوجون هذا من جهة ومن جهة أخرى يكون بمقتضاها المؤلف شخصية خيالية لا تستند إلى الواقع كما هو الحال في السيرة الذاتية، ومن ثمة يهدم هذا النوع من الكتابة الميثاق السير ذاتي.

ومن خلال ما سبق يمكن أن نستنتج العناصر التي يستند عليها التخييل الذاتي:

1- التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية في الاسم واختلافها في الواقع المعيش للمؤلف.

2-انزياحه عن واقع المؤلف الذي عاشه خلال مراحل حياته.

3-كسره لميثاق السير ذاتي المحدد لجنس السيرة الذاتية.

إن التخييل الذاتي هو "تخييل أحداث ووقائع شديدة الواقعية فهو إيداع لغة المغامرة بين يدي مغامرة اللغة، بعيدا عن التعقل والقوانين الكلاسيكية للرواية (...) إن التخييل هو إحلال الذات محلا إشكاليا يتذبذب بين الواقع والخيال، الوجود والفناء، الغياب والحضور، الغموض والتجلي في الآن نفسه بما يجعل العملية السردية برمتها محض بحث أبدي عن الأنا المفقودة، عن الذات التي أصبحت فجأة موازية للعالم والمعنى الذي أصبح مماثلا للحياة في أعمق صورها غموضا، وتخفيا واستعصاء عن الفهم والتأويل "(10).

ويقول عبد الله إبراهيم عن هذا الجنس الأدبي: " إنه ممارسة إبداعية مهجَّنة من فنين سرديين معروفين(السيرة و الرواية)، ولا يقصد بالتهجين معنا سلبيا، إنما المقصود به التركيب الذي يستمد عناصره من مرجعيات معروفة، و يعيد صياغتها وفق شكل مغاير... حيث تُشحن التجربة الذاتية بالتخييل، وتوفر هذه الممارسة الإبداعية حرية غير محدودة في تقليب التجربة الشخصية للروائي."(11)

2/ التخييل الذاتي في الرواية الجزائرية:

بما أن التخييل الذاتي هو الوجه المقابل للواقع والمضاد له في الوقت نفسه حيث يهدم مبدأ الصدق وواقعية الشخصية الرئيسية في السير الذاتية، ولربما "لهذا السبب توجس منه الكثير من النقاد واعتبروه مشروعا في الكتابة، إلا أنه تجسد في المشهد الأدبي العربي في كثير من الأعمال الإبداعية الجزائرية منها و المغاربية كما في: أعمال واسيني الأعرج، وعبد القادر الشاوي...وغيرهم كثير، وهو ما يسوغ لتأسيس هذا النوع من الكتابة وتجنيسه جنسا جديدا تقوم اللعبة السردية فيه على:

1-دعامة إحلال الذات محلا إشكاليا يتأرجح بين الواقع والخيال، مما يجعل اللعبة السردية برمتها بحثا أبديا عن الأناة المفقودة، وعن الذات التي أصبحت فجأة موازيا للعالم.

2-دعامة لغوية، تقوم على لغة المغامرة، أي نقل مركز الثقل من المغامرة/الحكاية إلى الأداة/لغة الحكاية، فيتحول السرد تحولا جذريا ليتوغل في لعبة اللغة بكل إمكاناتها وإغراءاتها اللامحدودة، وتصبح الكتابة ممارسة ذاتية خالصة والنص نصا شخصيا حرا ليس ملزما بما هو واقع خارج ذات الكتابة"(12)

إذا كانت نصوص التخيل الذاتي نصوصا" سيرية تلجأ إلى قذف الذات الكاتبة في مواقف احتمالية لتعيش تجارب متخيلة وتبتدع كتابة مجنحة خارج الإطار الواقعي"(13) فإن النموذج الذي اخترت الاشتغال عليه (الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي) للكاتب الطاهر وطار يظل محاولة شديدة الارتباط لا بدواخل الذات الكاتبة فقط بل يستثمر إلى حد بعيد تفاعل هذه الذات مع معيش المجتمع ولكنه لا يعلن هويته الاجناسية الصريحة، حيث لا يحمل صفة التخييل الذاتي على غلافه، وإنما صدر مرتبط بجنس الرواية.

إن عدم مجازفة أي كاتب جزائري إلى غاية اللحظة على إطلاق صفة التخييل الذاتي على نص من نصوصه هو أمر له مبرراته حيث أن الكتابة الإبداعية الروائية والنقد المشتغل عليها في الجزائر لم يتعاملا إلى الآن مع مصطلح التخييل الذاتي رغم قابلية نصوص روائية كثيرة الانتساب إلى هذا النوع الفرعي من الكتابة، بالإضافة إلى اعتبار آخر وهو أننا إذا كنا بصدد الحديث عن السيرة الذاتية وعن الرواية فنحن "إذن حيال جنسين كتابيين يلفهما سؤال الهوية، كتابتين تربط بينهما أكثر من آصرة"(14)

ولا نجد حرجا "في التأكيد على أن قارئ النصوص الروائية الجزائرية الصادرة في الفترة الممتدة ما بين 1990-2010 سيجد أن عددا من تلك النصوص يشي بتحول في نمط الكتابة ولعل هذا القارئ إن هو ركز مثلا على النصوص التي صنفناها ضمن اتجاه رواية الأنا بصفة عامة ورواية التخييل الذاتي على وجه الخصوص سيلاحظ اهتزاز مفهوم التخييل السردي الموضوعي بقوة، وتعويضه بنموذج التخييل الذاتي كشكل بديل للرواية بنسقها وقواعدها المتداولة "(15)

لقد كانت الفئة الأخيرة من الكتاب، يسندهم"جيل من كتاب الشباب الذين ينتمون زمنيا إلى التسعينات من القرن الماضي وإلى الفترة الحالية من القرن الواحد والعشرين، هي الفئة الأكثر تأثرا بنوازع ما بعد الحداثة، تنطلق أدبيا من مفهوم اللاإنعكاس إن صح القول، بمعنى آخر، انتقاء الرغبة في تمثل الواقع أو نقله أو إصلاحه، فوقعت في قلب القلق النوعي المميز للرواية المعاصرة، من غياب البطل تشذر الهوية، تحويل الحياة، تخييل، الشك، القلق، التردد، الأنا العاري من كل إحالة مرجعية، تحطيم الحدود المائزة بين الأجناس الأدبية، البوح، الاستبطان والتعري السيكولوجي، وهي المقومات نفسها التي تميز التخييل الذاتي...غير أن النقد العربي على الرغم من وجود مختلف التمظهرات الشكلية في النصوص الأدبية، لم يطلق عليها توصيف التخييل الذاتي."(16)

3/إشكالية التجنيس في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"

يعد نص "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" آخر عمل في الألفية الثانية وهي تجربة جديدة كتبها الروائي"الطاهر وطار" في وقت قياسي جدا لأن التجربة كانت ناضجة في رأسه منذ سنوات عديدة، حيث يقول عنها في حوار معه للخليج الثقافي:"كتبتها خلال عشرين يوما في منطقة "شنوة" الجبلية المطلة على البحر غرب الجزائر العاصمة، في أشرس سنوات التقتيل الجماعي"(17)

كما استند الروائي"الطاهر وطار" في كتابته لهذه العمل على حوادث تاريخية واقعية شديدة البعد عن الفترة الزمنية التي عايشها الكاتب وهذا ما أكده في مقدمة الرواية حيث يقول:"اتكأت في هذا العمل على حالة وقف أمامها خليفتان، لا نقاش في نزاهتهما موقفين متضادين. هي حالة قتل خالد بن الوليد، لمالك بن نويرة، ففي حين طالب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، برجم خالد، وهذا موقف مبدئي في منتهى الصرامة والقسوة، قال أبو بكر

رضي الله عنه، لقد اجتهد خالد...وخلاصته أنه يشك في إصابته، فله أجر واحد. والتراجيديا في مسألة مالك الشاعر الظريف الذي وهبه الله جمالا خارقا، ليست في موته، إنما في النذر العنيف الذي حققه خالد، وهو جعل رأس مالك هذا أثفية، تضع عليها أرملته أم متمم القدر."(18) وبهذا يكون الكاتب قد أضفى على عمله نسبة من الواقعية تجعل القارئ يقع أمام أزمة تحديد مدى صحة هذه الأحداث ومدى قربها من واقع الكاتب.

تعالج هذه الرواية إمكانية العودة إلى الماضي بطلها هو"الولي الطاهر" الذي يحمل نفس اسم المؤلف حيث يبحث عن قصره الذي أضاعه المسلمون الذين ولت معهم الحضارة الإسلامية، وهو في تحولاته المتعددة يصور لنا مرة رجل صوفي، ومرة أخرى إنسان مسلم تائه، ومرة ثالثة حاكم متسلط وما هذه التحولات إلا دلالة يجسد فيها الروائي ضياع الإنسان في عالم تشابكت فيه الأشياء فلا يمكنه العودة إلى ماضيه ولا هو مواكب للعصر الحاضر، عصر التقدم العلمي القاهر، فصار في عالم معقد متشابك لا هو منه ولا إليه.

1.3/الميثاق والعقد:

لقد عرّف فيليب لوجون ميثاق السيرة الذاتية وميز بينه وبين العقد فقال" : لقد استهواني مصطلح ميثاق السيرة الذاتية، لأنه يثير صورا خرافية، مثل المواثيق مع الشيطان التي نغمس فيها ريشتنا في دمنا من أجل بيع الروح، في حين يحيل العقد على دلالة أكثر نثرية إننا عند كاتب شرعي، إن مصطلح عقد سيتتبع ويفترض وجود قواعد صريحة، ثابتة ومعترف بها لاتفاق مشترك بين المؤلفين والقراء بحضور الكاتب الشرعي الذي يتم التوقيع عنده على نفس العقد، وفي نفس الوقت."(19)

ويمكن للمواثيق أن تتنوع وتتعدد أشكالها وتختلف أماكن تواجدها وورودها من كاتب إلى آخر ومن نص إلى آخر " فالميثاق ميثاق العنوان أو ميثاق التمهيد، حيث يلاحظ القارئ تطابق المؤلف السارد و الشخصية، مع أنه لم يكن موضوع أي إعلان رسمي."(20) فالميثاق يقود القارئ للوصول إلى حقائق فعلية تتعلق بتاريخ شخصية واقعية، يسرد لها، أما غياب هذا الاتفاق يجعل القارئ يعيش مع تجربة خيالية يصوغها الكاتب من وحي خياله، وفي هذه الحالة يقع القارئ في مأزق التجنيس وتحديد هوية النص. وكتاب السيرة الذاتية العادية يدونون مصطلح سيرة ذاتية على الغلاف، كما فعلت فدوى طوقان على غلاف سيرتها "رحلة جبلية رحلة صعبة " سيرة ذاتية، و إن خلا الغلاف من هذا الميثاق فإن

موقعه الطبيعي في هذه الحالة يكون في المقدمة، إذ يصرح الكاتب بأنه بصدد سرد لتاريخ حياته الشخصية، و بذلك يكون قد عقد ميثاقا مع القارئ، و جعل النص وثيقة تاريخية لحياته رغم ما يشوب السيرة الذاتية عموما من نقص ونسيان وإخفاء لبعض الحقائق المتعلقة بالكاتب.

و بالعودة إلى النص الأدبي محل الدراسة نجد أن الكاتب قد صرح في غلاف الرواية بأن العمل الأدبي ينتمي إلى جنس الرواية وليس إلى سيرة ذاتية وبهذا يكون الكاتب قد نفى عن هذا العمل أن يكون عبارة عن سيرة ذاتية، إلا أنه صرح في مقدمة الرواية بأن هذا العمل هو عبارة عن سرد لأحداث واقعية تتناول حركة النهضة الإسلامية بكل تجاويفها وبكل اتجاهاتها وأساليبها أيضا.

2.3/التطابق بين المؤلف والشخصية الرئيسية:

يهتم دارسوا النصوص المرتبطة بحياة أصحابها و ذواتهم بقضية التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية أو عدمه ؛ لما لهذه العلاقة من دور في تحديد الجنس الذي ينتمي إليه النص الأدبي، وتحديد هويته، فالتطابق بين العناصر الثلاثة المؤلف، السارد والشخصية الرئيسية يدخل النص في باب السيرة الذاتية دون أدنى شك في ذلك، وانعدام هذا التطابق يؤدي إلى تداخل النص مع أجناس أدبية أخرى.

ففيليب لوجون عرض من خلال تعريفه للسيرة الذاتية أربعة معايير تحدد هذا الجنس منها" :وضعية المؤلف والتطابق بينه وبين السارد، و وضعية السارد والتطابق بينه وبين الشخصية الرئيسية " (21) وهو يرى أن هذا التطابق" إما أن يكون أو لا يكون لا وجود لدرجة ممكنة "(22) فالسيرة الذاتية يشترط فيها حتى تتحقق أن يكون هناك تطابقا بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية، وبالرجوع إلى النص الأدبي محل الدراسة نلاحظ من البداية تطابق اسم الكاتب مع اسم الشخصية الرئيسية "الطاهر"حيث أعلن عنه الكاتب في العنوان مما يجعل القارئ أمام هذا التصريح يقع في إشكالية تجنيس هذا العمل الأدبي بين السيرة الذاتية والرواية والتخييل الذاتي،حيث قام الكاتب بوضع اسمه في أعلى الغلاف ثم عنوان الرواية"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" ثم جنس العمل من الأسفل"رواية" ورغم هذا التطابق بين المؤلف والشخصية الرئيسية إلا أنه قام بكسر كل علاقة محتملة الوجود بين الأحداث الموظفة (كحادثة بلارة بنت تميم بن المعز، وحادثة

خالد بن الوليد وقتله لمالك بن نويرة)وواقع الكاتب المعيش وذلك للبعد الزمني الموجود بينهما مما يجعل النص الذي بين أيدينا ينتمي إلى التخييل الذاتي يقول :"ذاكرة الولي الطاهر تستعيد صورا وأخيلة، عن وقائع جرت، لكن لا يميز، أو حتى يتصور زمن وقوعها، الأمس واليوم والسنة الماضية، والقرن الماضي، كلها، آن قد يصغر وقد يكبر، قد يطول وقد يقصر.

وميض .وميض.مناظر تتشكل، وتختفي.

هاهي بلارة بنت تميم بن المعز تعاوده، كما خاض المعركة الفاصلة معها وليس كمجرد رغبة، ظلت تدفعه في الفيف سعيا وراء لا شيء."(23)

كما نلاحظ أن الكاتب قد خاض معركة فاصلة مع بلارة بنت تميم بن المعز وهذا مستحيل الحدوث لأن هناك اختلاف كبير بين الفترة التي عاشت فيها بلارة وبين الزمن الذي يعيش فيه الطاهر وطار، كما أن الكاتب قد ربط اسمه بالولي ليعطي للشخصية بعدا صوفيا يكون لها مبرراتها في التحولات التي تعيشها وتتجسد في حالة واحدة كما تعطيها الحرية الكاملة في الشطحات والقفزات التي تقوم بها عبر الزمن باستعمال بناء لولبي يتقدم ويتراجع.

3.3/التخييل المكاني:

إن أهمية معرفة المكان ومغزاه يعد متكأ في استقراء قيمة أحداث النص من بعدين مهمين: بعد فني وبعد حياتي، فأما البعد الفني فباعتبار المكان أحد عناصر السرد المهمة في النثر الأدبي مثله مثل الحدث واللغة والشخوص والزمن وأما الحياتي فيكمن في الذاكرة الجماعية لشعبنا تلك التي عانت الكثير من فقدان المكان حتى غدا الاشتياق إلى المكان الضائع ملمحا من ملامح شخصيتنا، ويتكاثف المكان بشكل رهيب في مخيال الروائي حيث يجمع بين نضج قيمته الفنية والتعدد والتنوع وخاصة مدلولاته الرمزية كالصحراء والقصور الثلاثة والولي الطاهر.

إن الحضور القوي للمكان بالنص الروائي له ما يبرره من منطلق إثبات الوجود لشخوص الرواية أو ربما لقيمة المكان في حد ذاته والأرجح أن للحالتين معا مدلولهما من ناحية الضرورة وليس الخيار، يقول غاستون باشلار في كتابه جماليات المكان:"المكان هو كل شيء حيث يعجز الزمن عن تسريع الذاكرة –الذاكرة- أية أداة غريبة هي!الا نسجل

استمرارية واقعية، بالمعنى البيرجسوني. إننا عاجزون عن معايشة الاستمرارية التي تحطمت. نستطيع أن نفكر فيها فقط بمستوى تجريدي خال من الكثافة. إن وجود عينات الاستمرارية المتحجرة الناتجة عن البقاء الطويل في المكان توجد في وعبر المكان. مقصورات اللاوعي. الذكريات الساكنة، وكلما كان ارتباطها بالمكان أكثر تأكيدا كلما أصبحت أوضح. إن وضع الذاكرة في الزمن هو فعل كتاب السيرة"(24)

وقصد التمكن من استجلاء العلاقة المؤسسة بين الشخصية والمكان في سياق التعدد والتنوع داخل المكان وخارجه فإننا نلمس ذلك في كيفية تنسيق عناصر السرد وما يسايرها من توازن فني كتوظيف الحدث واللغة والمكان والزمان والشخوص وكأنه بذلك الروائي يريد التأسيس لنصه بالمكان أولا بقوله:" توقفت العضباء فوق التلة الرملية عند الزيتونة الفريدة بهذا الفيف كله قبلة المقام الزكي المنتصب هنا وهناك وعلى بعد ميل بشكله المربع وطوابقه السبع ...بحول الله وحمده ها نحن من جديد نرجع إلى أرضنا شدد على كلمة أرضنا كأنما يريد أن يؤكد أنه لم يكن يدري بالضبط أين كانت غيبته هذه كل هذا الوقت ثم ينزل فيصلي ركعتين تحية لله وتحية للأرض وتحية للزيتونة ثم أولا وأخيرا تحية للمقام الزكي"(25) ومن خلال هذا المقطع يتجلى لنا معاينة المكان وتحديده من طرف "الولي الطاهر" ومع ذلك يبقى المكان مضطربا وفي كثير من الأحيان يتحول إلى سراب أثناء عملية التحليق والإقلاع والهبوط في حيز النص الروائي وهو ما يشير إليه الكاتب.

إن البراعة الفنية التي وظفها الروائي في تصويره للأمكنة حيث جعلها تضطرب وفي كثير من الأحيان تختفي وتتحول إلى سراب مرده ولوج الروائي إلى المذهب السريالي والتعمق فيه فمثلا في سرده خاصة عند انتقاله من الحاضر إلى الماضي في أفق مخياله اللامتناهي نجده يمزج بين العقل الواعي والعقل الباطن ومن ضرورات هذا المزج كما هو متعارف عليه في المذهب السريالي أن لا يخضع الكاتب أو الشاعر لأصول المنطق والتفكير السليم يقول الكاتب في مقدمة روايته:"فهذه الرواية رغم ما فيها من تجريد ومن سريالية، هي عمل واقعي، يتناول حركة النهضة الإسلامية بكل تجاويفها وبكل اتجاهاتها، وأساليبها أيضا"(26)

يحاول الروائي إسقاط المذهب الواقعي على نصه ليعلن أنه الشاهد والضمير لما وقع ويقع في دوامة العنف التي اجتاحت البلاد والتي أثارت الكثير من التساؤلات بالنص الروائي فمن نحن حتى تستفحل الجريمة الكاملة بيننا؟

يرسم الكاتب لوحة مكثفة من الأماكن يوقف فيها الزمن عن الحراك ليجعل الفيف والقصور الثلاثة و العضباء والولي الطاهر وجها لوجه في مواجهة مع القارئ لتكون بداية قوية ينطلق منها الكاتب لرسم معالم روايته التي تحمل أحداث واقعية استخدمها الكاتب كرموز توحي بالوضع الذي عاشته الجزائر خلال العشرية السوداء وهذا ما صرح به الكاتب في قوله:"هوى الفأس على المائدة وعلى من تحتها.انفجر الدم في كل مكان، في الزاوية الأخرى تنكفئ على نفسها امرأة في الثلاثين، في حضنها رضيع، تبذل قصارى جهدها، أن لا يلفت الانتباه إليه، لكنه، خانها. هوى الساطور يقسم الرأس المغطى بمنديل برتقالي اللون، وقع الطفل في الأرض امتدت قدم تدوسه. "(27)

يصور الكاتب بشاعة الموقف بكل تفاصيله المقززة كأنه موجود في قلب الحدث، وهذا ما يضفي على الأحداث جانب من الواقعية والصدق والحقيقة يجعل من هذه الرواية فسيفساء فنية تمزج بين الماضي والحاضر، بين الخيال والواقع، بين الأنا والآخر، حاول من خلالها الكاتب تسليط الضوء على الكثير من الأحداث التي بقيت عالقة عبر التاريخ، كحادثة مقتل مالك بن نويرة على يد خالد بن الوليد والبحث في الأسباب التي جعلته يفعل ذلك، فالتاريخ كان مقياسا تقاس به مجريات أحداث الجزائر في واقعها المتخيل على لسان"الولي الطاهر" والذي يبدأ صراعه منذ إفلات الحضارة الإسلامية وضياعها مع الخلفاء الراشدين، وإعادة الحياة لها من جديد لنكون أمام بعث وإحياء لشخصية حقيقة تعيش أحداث ممزوجة بالواقع والخيال .

الهوامش:

1-فايد محمد:تجربة التخييل الذاتي في الرواية الجزائرية، مجلة المدونة، كتاب المؤتمر الدولي: السيرة الذاتية والتخييل الذاتي الرواية الجزائرية والعربية، دار التل للطباعة، الجزائر، العدد8، 2017، ص216.

2-محمد القاضي ومجموعة من المؤلفين: معجم السرديات، دار محمد علي –تونس، ط1، 2010، ص354.

3-فيليب لوجون: السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص23.

4-محمد القاضي ومجموعة من المؤلفين: معجم السرديات، المرجع السابق، ص260.

5-فيليب لوجون: السيرة الذاتية والميثاق الأدبي، تر:عمر حلي، المرجع السابق، ص23.

6-محمد القاضي ومجموعة من المؤلفين: معجم السرديات، المرجع السابق، ص261.

7-المرجع نفسه، ص262.

8-المرجع نفسه، ص79.

9-محمد الداهي: التخييل الذاتي هوية المفهوم ومفارقاته، مجلة آفاق-اتحاد كتاب المغرب، العدد80/79، 2010، ص48.
10-عبد الله شطاح: التخييل الذاتي، محاولة تأصيل، مجلة الآداب العالمية، العدد:162/161، اتحاد كتاب العرب، سوريا سنة2015، ص17.
11-عبد الله إبراهيم:إشكالية النوع والتهجين السردي-مجلة علامات-النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، مج19، ج1، ص03.
12-عبد الله شطاح: التخييل الذاتي، محاولة تأصيل، المرجع السابق، ص23.
13-محمد برادة: الذات في السرد الروائي، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط8، 2016، ص10.
14-إلياس فركوح: عن رواية السيرة الذاتية...عن شعرة معاوية، ضمن: أعمال ندوة الرواية العربية في نهاية القرن، رؤى ومسارات، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، د.ط، 2006، ص451.
15-فايد محمد: تجربة التخييل الذاتي في الرواية الجزائرية، المرجع السابق، ص228.
16-عبد الله شطاح: التخييل الذاتي، محاولة تأصيل، المرجع السابق، ص39.
17-يحياوي عياش: حوار مع الروائي الطاهر وطار، مجلة التبيين عن الجاحظية، الجزائر، العدد 15، 2000، ص85.
18-الطاهر وطار:الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2004، ص10.
19-فيليب لوجون: السيرة الذاتية والميثاق الأدبي، تر:عمر حلي، المرجع السابق، ص12، 13.
20-المرجع نفسه، ص14.
21-المرجع نفسه، ص22.
22-المرجع نفسه، ص24.
23-الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، المصدر السابق، ص20.
24-غاستون باشلار: جماليات المكان، تر:غالب هلسا، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1989، ص39.
25-الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، المصدر السابق، ص13.
26-المصدر نفسه، ص9.
27-المصدر نفسه، ص87